

اللغة العامية في القرن الحادي عشر

للاستاذ علي الماري

في مقال قيم نشرته الرسالة بعنوان (الألفاظ الأيوبية في كتاب تقويم النديم) جاء ذكر كتاب (هز الفحوف) للشرييني ، علي أن صاحبه نسج علي منوال صاحب تقويم النديم ، فأحيت أن أتحدث عن هذا الكتاب ، كتاب هز الفحوف

مؤلفه : لم أقرأ عن مؤلف هذا الكتاب قليلا ولا كثيرا ، فليس لدي من المراجع ما يبينني علي ذلك ، ولكنني سأرسم له صورة اسقعيةما من كتابة هذا

هو الشيخ يوسف بن محمد بن غنيد الجواد بن خضر الشرييني ، أحد علماء الأهرس ، وقد تلمذ للعالم الكبير الشيخ شهاب الدين القليوبي ، وكان يهبط الناس ، ويهدم لهم مجالس في طريقه إلى الحج ، وهو من قرية شربين كما تدل عليه نسبته ، ولكن آباءه لم يزاولوا ما يزارله رجال القرى من الفلاحة ، وهو شاعر يقول الفصيد والرجز والموالي ، وله شعر لا بأس به ، وبالرغم من أنه أكثر في كتابه من الألفاظ العامية إلا أنه حين يكتب بالمرية يجيد وهو يلتزم السجع على طريقة أهل عصره ، ومن قوله :
وقد ناب مؤلف هذا الكتاب من كيد الدهر نائب ، ورمته الليالي
بسهام المصاب . فأصبح بعد الجمع وحيدا ، وبعد الأوس فريدا .
يسامر النجوم ، ويساور الموم ، يسكب علي فراق الأحبة
الدموع ، ويرجو عود الدهر وهيئات الرجوع

يأليت شمري والدنيا مفرقة بين الرقاق وأيام الوري دول
هل ترجع الدار بعد الأوس آمنة وهل تعود لنا أيامنا الأول

لكن الصبر علي غدرات الأيام ، من شيم السادة الكرام
والؤلف تارة يصف نفسه بالفقر والخلاعة ، وتارة يذكر أنه
من آباء أمجاد ، يجالسون عظماء الدولة ، وأنه كان يهبط الناس
في طريق الحج . وقد ذهب إلى الأرض المقدسة مرتين في

سنة ١٠٧٤ ، وسنة ١٠٧٥ ، علي ما ذكر في كتابه . وهو كثير
التطواف في البلاد ، فرة في الصعيد ، وأخرى في دمياط ، وثالثة
في بلدة شربين ، ثم يرحل منها إلى القاهرة . وهكذا .

موضوع الكتاب : عنوان الكتاب (هز الفحوف في شرح قصيد أبي شادوف) ويقول المؤلف في مقدمته (وبعد
فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى يوسف بن محمد ... كان الله له ،
ورحم سلفه ، أن مما سر علي من نظم شعر الأرياف ، الموصوف
بكتنافة اللفظ بلا خلاف ، المشابه في رسمه لطين الجوالس ، وجرى
ذكره في بعض المجالس ، قصيد أبي شادوف ، الحكاكي ليمر الخروف
أو طين الجروف ، فوجدته قصيدا يا له من قصيد ، كأنه عمل من
حديد ، أو رص من قحوف الجريد ، فالتبس مني من لا تسمى
مخالفته ، ولا يمكنني إلا طاعته ، أنت أضع عليه شرحا كريش
الفراخ ، أو غبار العفاس وزواجع السباح . يحل ألفاظه السخيمة ،
ويبين معانيه الديمة ، ويكشف القناع عن وجه لغاته القشرية ،
ومصادره الفشكلية ، ومعانيه الركيكة ، ومعانيه الدكيكة ، وأن آه
بمحكايات غريبة ، ومسائل هبالية عجبية . وأن أحفه يشرح لغات
الأرياف ، التي هي في معنى ضراط النمل بلا خلاف ، وأشمارم
المتفرقة من بحر التخاييط ، واشتقاق بعض كلماتها التي هي في
الصفات تشبه الشراميط ، وذكر فقراتهم الجهال ، وعلمهم الذي
يشبه ماء النخال ، وفقراتهم الأجلاف ، وأحوال الأوباش منهم
والأطراف ... الخ)

ومن هذا التقديم نستطيع أن نفهم مايشتمل عليه الكتاب ،
وقد قسمه مؤلفه إلى جزئين ، جعل أولها تمهيدا للثاني ، وشرح
في الثاني قصيد أبي شادوف ، ولئن كان صاحب كتاب تقويم
النديم قد جاء بمقامة (طاحفة من أولها إلى آخرها بضروب من
الأمحاض ، والفحش والمجون الذي لا يستغاث نشره) فإن
الشرييني قد أسرف في ذلك ، ولكن هذا لا يمنعنا أن نشير إلى
ما يمكن أن يستفيدة الباحثون من هذا الكتاب

في هذا الكتاب أمور علي جانب كبير من الأهمية ، فهو
قد سجل اللغة العامية في عصره ، وشرح معاني مفرداتها وما
تدل عليه شرحا واقيا ، وهو قد تروض للعالة الاقتصادية بأسباب ،
كما أنه وصف حال الحكام مع الشعب وحال الشعب مع الحكام

أدق وصف ، وفي أثناء الكتاب فوائد أدبية ، قصص ، وأشعار ، وأخبار من الأدب الرفيع ، وفيه شرح لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهكذا ..

والمؤلف كالماء عسره ، مفرم بالبديع كل الإغرام ، فهو لا يترك مناسبة تمر دون أن يذيق فيها على نوع من أنواع البديع ، ويظهر أنه كان واسع الاطلاع فهو يذكر كثيرا من الكتب ، ويقتل عنها ، وبمضى عناية خاصة بذكر خواص الأطعمة وفوائدها ومضارها ، ولا سيما الأطعمة أهل الريف

اللغة العامية : كتب أبو شادوف قصيدته باللغة العامية ، وضمنها شكوى زمانه ، وإخوانه ، وحكامه ، وأمانيات كثيرة في تشهيه بعض الأطعمة ، وتعرض للشرح لكل ذلك بالعامية مرة ، وبالمرية الفصحى أخرى . والذين يمتنون بدراسة العامية وتطورها يجدون في هذا الكتاب غناء لهم أى غناء . ويمتاز هذا المؤلف عن غيره بأنه إذا ذكر كلمة عامية شرح مدلولها شرحا وافيا ، وإذا كان مدلولها في بلاد مختلفة شرح مدلولها في كل مكان ، وإذا ذكر نوعا من الطعام الريفى بين طريقة صنعه في كل إقليم ، وقد يذكر طريقة صنعه في القاهرة . وهو دائما يذم الريفيين طعامهم ، ويمتدح طعام القاهرةيين ، ولا سيما طعام الأراك ، وراه يقول في ص ١٧٩ « أما الفطابف فإنها تعمل في بلاد المدن من الدقيق الأبيض الخالص المنقوب ، وتصب على سوانى سفار يقال لها الرقع من حديد أو من نحاس إلا أنها صغيرة مثل القرصة ، وهى ألذ هذه الأنواع وأطيبها خصوصا إذا قليت بالسمن ، وصب عليها عمل النحل ، والله الحمد أكلنا منها مرارا ، وتلذذنا بها ، ونسأل الله تعالى أن يطعمها لإخواننا الفقراء ، ويمهمم بأكلها »

ويمكن بدراسة الكتاب دراسة دقيقة أن نعرف تطور بعض الكلمات العامية ، فمثلا (الكشك) كان يطلق في عصر المؤلف على المحل الخارج من البناء المرتفع المركب على الأخشاب تجمله الأكاير للجلوس . والزربون كان يطلق في عهدنا على ما يلبسه الفلاح في رجله ، وهو في قرانا له إطلاق آخر . وهكذا الحالة الاقتصادية : يجيز إلى أن المؤلف وضع كتابه لهذا الغرض ، فهو لا يزال يذكر في كل مناسبة ما يلقى الفلاحون

من ضيق العيش ، وما يكابدون من الفقر ، ويذكر على ألسنتهم قصصا تصور سرور أحوالهم . وقد أخذ من الجزء الخاص في قصيدة الناظم بهذا الأمر ، موصفا للشرح والتطويل ، على أنه من أول الكتاب يضبط على هذه الناحية ، ويولها عناية خاصة ، فهو يذكر أن بعض الفلاحين شخخ بأنفه وتناه على أخذانه ، ونال السعادة يوما ، وذلك أنه استحضر لزوجته سقطا ، في يوم عيد ، فطلبت منه رائحة فقال ما ملى فلوس ، فقالت له زوجته : من خلى شئ لعقب الزمان ينفعه ، أنا خليت في الصوسمة أربع بيضات ، خذهم ولا تقل لخد فإن الناس تحمد الناس وخصوصا اليوم عيد وأت اليوم في نعمة كبيرة ، ثم يذكر الرجل أن السعادة تمت لهم حين اتى هو وزوجه في كرش الهدى شوية قول صحيح ، ولكن الرجل ما يكاد ينسى من ذكر قصته للناس حتى يقولوا له متمجبين مما ناله من السعادة : زمانك يا أبو عفرة ولئ وراج ، ومات الناس ، وجار علينا الظالمون

الحالة السياسية : أو حالة الفلاحين مع حكامهم ، والمؤلف كذلك يولى هذه الحالة عناية فائقة ، ويستطيع من يريد البحث أن يجد سورة وافية انظم الحكام في عصر المؤلف ، ومعاملتهم للفلاحين ، بل إن جملة واحدة يذكرها المؤلف تدلنا ببلغ الدلالة على ما كان يعانيه الفلاحون ، فهو يقول : ولكن نحمد الله الذى أراحنا من الفلاحة وهمها ولم تكن لأبائنا ولا أجدادنا ، فالفلاحة على كل حال بلية أعاذنا الله والنحسين منها . ويقول في موضع آخر : فلا بد على كل حال من تغليب المال ، ولو حصل بين ذلك المهم والنكال ، كما فى المثل الذى اشتهر وعم : مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم ، وما دام على الفلاح شئ من المال فهو في هم شديد ، ويوم السداد عند الفلاح يوم عيد . وهو يصف الكاشف ونزوله بالبلى ، كما يصف الملتزم وأفعاله ، من إزامه الفلاح ولو كان فقيرا باطمامه وإطمام أصحابه الذين معه ، وإطمام دوابه . وقد يرى الفلاح الدجاج ولا يأكل منه شيئا - ومحرمه على نفسه وعياله ، وكذلك السمن والدقيق يبقيه لأجل هذه (البلية) على حد قول المؤلف ، وهو وصف مؤثر جدا لا يفتى فيه إلا الاطلاع عليه .